الفنان

[مهداة إلى الصديق النابغة صلاح الدين طاهر]

للأستاذ عبد المعطي حجازي

كلما أسفر فى الليل القمرْ ... مثل معنى فى خيال الشاعرِ
أو مشى الموج صفوفاً وانتشر ... كأمان هجستْ فى خاطرِ
أو سرى برق أو انهلّ مطر ... كسنا الثغر ودمع الحائرِ
أو تهادى فى الأصيل الجدْوَلُ ... خافتَ الأنغام حلو النبراتْ
قبس الفنان عنها ... بعض ألحان الخلود
وجلا الناس منها ... بعض أسرار الوجود
وإذا احمرّتْ من العُتب خدود ... أوشكتْ من خجل تستعرُ
وإذا ماست من الدّل قدود ... عبث الكأس بها والوترُ
وإذا ثارت على الصدر نهود ... يأمر الثوبُ فــلا تأتمر
أو تناجت فى الشفاه القُبل ... فتلاقت فاستحالتْ لثماتْ
ترجمتها ريشة الفنـ ... ـان لحناً نشيدا
وكستها روعة الأل ... وان أبداعاً جديدا
وجمال العيش فى صبح الربيعْ ... وجلال الموت فى ليل الخريف
والمنى تشرق فى الوجه البديع ... والأسى يعصف بالقلب الضعيف
وحنان الأم للطفل الرضيع ... ووميض الغدر فى الوجه المخيف
وابتسام الدهر لما يقبلُ ... وعبوسَ الحظ عند النائبات
كلها أصداء حس ... وخيال عبقرى
مزجت سحراً بنحس ... وجميلاً بِزَرِى
أيها السابح فى دنيا الجمالْ ... كشعاع الشمس فى الروض الأنيق
تنثر النور وتلقى بالظلال ... كسنا العين من الهدب الرشيق
تمزج الحس بألوان الخيال ... مثلما يمزج بالماء الرحيق
أنت للفن نبي مرسل ... شهدت عيناى منك المعجزات
أنت ظل الله فى الأر ... ض افتناناً وابتداعا
أنت وحى الشمس للرو ... ض حياة وشعاعا
أيها الطائر كالنسر الجسورْ ... بجناحين : سموّ وابتكار
تحت ظل الغصن أو فوق الصخورْ ... ترسل الوحى إلى غير عثار
فإذا الطّود على الرق سطور ... وإذا الروض تزيل فى إطار
وإذا الماضي جديد مقبل ... هب كالناثم من طول سُبات
أيها الجبار هذا الكو ... ن مَغْنًى فى خيالك
وصدى سجله الفن ... ليحيا فى ظلالك
أيها الساهر والناس نيامْ ... تصنع الحسن وتلهو بالخلود
أيها الراهب فى دير الظلام ... تكشف الأستار عن لغز الوجود
هذه دنياك ، دمع وابتسام ... وأغاريد عــذاب ورعود
ونعيم بالأمانى مثقــل ... وجحيم مستطير الجمرات

أقرانه من العظماء ، وما كان فى حلقته إلا من يضمر له السخرية حين يريه الاحترام

وتراه يلوك بعض كلمات إفرنجية تعد على أصابع اليد فيحرك بها لسانه فى لهجة محطمة أكثر تحطما من سيارته ، لهجة أشبه بلهجة الأوربي الذى ينطق كلمات عربية لم تطرق سمعه إلا منذ شهر ، وأرى شأنه فى هذا كشأنه فى استبدال ملابسه العربية بحلة إفرنجية

أما مكانته عند من يزعم من الكبراء فقصاراه فى هذا السبيل ألا تفلته فرصة إذا رأى أحد هؤلاء أو بعضهم فى أى مكان فيتقدم إليهم محيياً متهللاً يهز الأيدى التى تمتد فى فتور إليه هزاً حماسياً قوياً وهو يقول : « أهلاً فلان بك . . . كيف حال سعادة البك » . ولا ينصرف إلا بعد أن يكرر تحياته وإن هموا هم بالانصراف دون أن ينظروا إليه لأنهم لا يعرفونه ! وهى بعد مقدرة على أى حال أميل إلى أن أسميها (فن الحياة) ففى الناس من لا يستطيع أن يسلم على من يعرف حق المعرفة ممن هم أكبر منه !

رأيته ذات يوم يطلع المحيطين به على البطاقات الكثيرة التى جاءته فى العيد ، وقد عهد لذلك بذكر ما شاء له زعمه ممن يعرف من « الباشوات والبكوات » . وكانت البطاقات كلها مرسلة إليه حقاً وفيها من هذه الألقاب حقاً ؛ ولكن لم أر على واحدة منها غير كلمة (للشكر) فحسب !

وآخر مرة رأيته فيها كان عنقاً فقد حياه أحد الريفيين بقوله يا شيخ فلان ، وهذا هو اللقب الذى يجرى على ألسنة البسطاء من أهل الريف إذا أرادوا التعظيم ، وعجبت لم يغضب وهو شيخ فى نشأته العلمية قبل كل شيء وكان أولى به أن يجعل هذا اللقب مدعاة فخره ، ولكن هيهات أن يرضى حتى بالأفندى وهو عند نفسه سعادة البك !

الخفيف